

قراءة في كتاب وقفات لحمد أبو شهاب



يتوالى في الأشهر الأخيرة صدور مؤلفات عديدة تتعلق بالشأن الثقافي الاماراتي، بإشراف مؤسسات محلية معروفة من بينها أكاديمية الشعر في هيئة أبوظبي للثقافة والتراث . ومعلوم أن الأكاديمية اشترت حقوق ملكية مؤلفات الأديب حمد أبو شهاب، وأصدرت تزامنا مع ذكرى رحيله في أغسطس/ آب الماضي الكتاب الأول من أعماله الكاملة بعنوان وقفات . ولعل ما يدعو إلى الكتابة عن هذا السفر أمران، الأول هو القناعة أن الكتاب الذي يُطبع ثم يوضع في خزانة زجاجية لا يمكن بأن يستفيد منه الحراك الثقافي المجتمعي والأكاديمي إلا إذا أصبحت الآراء الواردة فيه موضوع تفكير وجدل ثقافي . الثاني هو اقتراب معرض أبوظبي الدولي للكتاب، العرس الذي يفرض ضرورة الاحتفاء بمضمون الكتاب . والارتقاء به إلى مقام الأسئلة المعرفية

في البداية، لا يمكن التطرق إلى التأليف قبل الإشارة، لمن لا يعرفون المؤلف، إلى أن حمد أبو شهاب، يعد من مشايخ الثقافة والكتابة في الإمارات، لما يتسم به من اطلاع واسع على الخطوط العريضة للأدب الكلاسيكي العربي، ولنشاطه الكتابي الذي تغذى منه أكثر من جيل . يعد أبو شهاب شخصية عمامية تعبت على تكوين ذاتها، وحرصت على أن يكون مخزونها المعلوماتي واسعا في ما يتعلق بالشعر العربي الفصيح على يد أساطينه الكبار، وبالشعر النبطي الخليجي

على يد جهابذته المعروفين . ومن هنا، كان لأبوشهاب حضور قوي وطاق في المسار الثقافي المحلي لعقدين متتاليين على الأقل، غير أن هذا الحضور لم يصاحبه للأسف حوار نقدي، ولو حدث ذلك لاستفاد الأدب الاماراتي الكثير من هذا الرجل الذي لم يكن أحد يجرؤ على الدخول معه في جدل حول ما يكتب .

يمكن القول إن أبوشهاب موثق كبير للشعر النبطي المحلي، وناقل ذكي لجوانب من التراث الأدبي العربي القديم إلى ذاكرة الأجيال الجديدة في الامارات، إلى جانب كونه شاعرا بارزا في بناء القصيدة القديمة وفقا لجمالياتها المتفق عليها . بمعنى أن أبوشهاب لا يمكن وصفه بالمجدد في الكتابة الأدبية نثرا وشعرا، إلا في إطار ضيق يتعلق بالحراك الثقافي المحلي المضبوط وفقا للشروط التاريخية والاجتماعي لزمان ما قبل قيام الدولة وما بعد ذلك بقليل . أما إذا تم نقل تجربته الكتابية خارج المحيط المحلي فإنها ستوضع مباشرة ضمن مسار مدرسة الإحياء الأدبية في مصر وبلاد الشام . والعراق عند مطلع القرن الماضي .

ويمكن تأطير كتابه وقفات بالقيم التي أحياها ودعا إليها سامي البارودي وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم ومصطفى صادق الرافعي وحسن الزيات وإبراهيم اليازجي ومعروف الرصافي وغيرهم من رجالات النهضة . أي أن المسطور الأدبي لأبوشهاب يلتفت ولا يتطلع، لأنه مشدود دائما إلى قيم بلاغية ولغوية تم تأسيسها سلفاً في العهود الزاهرة للثقافة العربية أمويا وعباسياً وأندلسياً، وسيكون من الظلم لمساره الثقافي أن نسمه بسمات تجديدية ظهرت في الأدب العربي الحديث، لأن انشغاله النقدي والقيمي لا ينتمي إلى أي حراك تجديدي عربي معروف مثل مدرسة الديوان، وجماعة أبولو، والرابطة القلمية في الولايات المتحدة الأمريكية، ثم بعد ذلك حين ظهرت مجلة شعر في بيروت وما تبعها من تطورات . مذهلة في مفهوم الشعر والكتابة .

أهمية مسطورات أبوشهاب في كونها نضجت وتجلت مع قيام دولة الامارات في مطلع السبعينات، بل إنها انسجمت مع الخطاب الثقافي للدولة الداعي إلى تمتين الجذور الثقافية في أرض التراث من أجل حماية الهوية الوطنية من جهة ومن أجل الانطلاق في التنمية الثقافية على أساس قوي من جهة ثانية . وقد أبلى أبوشهاب في هذا المجال بلاء حسنا، فخدم مجتمعه ودولته بصدق قليل أشباهه .

ومن يطلع على كتاب وقفات سيلمس ببسر حدود الأفق التنظيري الذي ينطلق منه أبوشهاب في تصويره للشعر، وهو تصور وفي لمفاهيم مجمدة ومكرورة قياساً إلى التطورات التي حدثت في الخطاب الأدبي العربي فأبوشهاب لا يزال في حديثه عن جماليات الشعر ومقدرة الشاعر اللغوية مشغولاً بالجناس والطباق والتورية وأصناف الاستعارات، وهو انشغال لا عيب فيه، بل إنه ينتمي إلى تراثنا الأدبي العظيم، لكنه لم يعد هو انشغال الخطاب الأدبي النقدي العربي على الأقل منذ ستينات القرن الماضي . إن الحديث عن الجناس في شعر أحمد بوسنيدي في الصفحة 14 على سبيل المثال سيذكرنا بكتب الأقدمين من النقاد العرب، ويشعرنا بأن أبوشهاب ينصب خيمته الأدبية في زمن غير زمنه، أي أن قناعاته في علم الجمال الأدبي تنتمي إلى عصر غير عصره، وهو أمر غير مرغوب فيه لأنه يصطدم بالمقولة المتعارف . (عليها) أصالة الأدب في كونه إبداعاً لا اتباعاً .

استشراق

إن محبة تراثنا العربي في شقه الأدبي ضرورة دائمة ولازمة مستمرة، غير أن المطلوب من كل جيل ثقافي وأدبي هو أن يطلع على تراث أجداده وتراث الآخرين ثم يبدع وفقاً لشروط يومه وليس وفقاً لشروط زمن أجداده، وإذا كان أجداده يمثلون نمودجا قابلا للاحتذاء، فهؤلاء الأجداد كتبوا النثر والشعر وفقا لحساسية زمنهم وليس وفقا لحساسية زمن

من سبقوهم من العرب .أي أن المتنبي وأبا العلاء وعبدالقاهر الجرجاني والجاحظ وابن خلدون على سبيل المثال أبدعوا شعرا وفكراً وفقاً للمعرفة الاستشراافية لزمانهم، وليس وفقاً للمعرفة الراجعة في زمن أجدادهم القدامى

وإن ترويج عبارة (خير الشعر ما فهمته العامة ورضيته الخاصة) في الصفحة 44 من وقفات على أساس أنها من الحكم الأدبية يمكن أن يكون صالحاً في زمن كانت فيه المعرفة الشعرية على هذا القدر من الفهم، أما أن تروج هذه المقولة مع نهايات القرن العشرين لأجيال جديدة تدرس في الجامعات نظريات الأدب التي تأثر بها الخطاب الشعري والنقدي العربي منذ مطلع القرن الماضي فإن ذلك يجعل منها أشبه بتحفة أثرية تتم المحافظة عليها لمعرفة قدر المسافة التي قطعها الخطاب النقدي العربي وقطعتها قبله الحساسية الشعرية . ولأن عالم الأدب والكتابة مجال حر لنشاط الأفكار والآراء فمن حق أي كاتب أن يهجر المعرفة الراجعة في زمنه ويرتبط بمعرفة قديمة خارج حركية تاريخ زمنه، المهم هو أن يعترف أو يدرك أنه ينشط خارج تاريخ جسده وروحه ووعي عصره، وفي هذه الحالة يكون هذا خياره ومن واجبنا احترام هذا الخيار .

إن ما أطرحه من أفكار ليس غريباً عن المحيط الثقافي لمبدي الامارات، وحين ذكرت سابقاً عبارة (وفقاً للشرطين التاريخي والاجتماعي لزمن ما قبل قيام الدولة وما بعد ذلك بقليل) كنت أعني أن المعرفة الأدبية التقليدية في الامارات بدأت تشهد تراجعاً ملحوظاً نتيجة ظهور جيل إماراتي أدبي مثقف ومطلع على أحدث التجارب الشعرية العربية وعلى المعرفة النقدية الجديدة المتعلقة بمفهوم الشعرية والنص وعلاقتها بأحدث النظريات الفلسفية والجمالية . وقد تجلى ذلك في ظهور قصيدة التفعيلة على يد حبيب الصايغ الذي يعتبر أهم المؤسسين للتجديد في النص الشعري الاماراتي، وتجلى أيضاً على يد الشعراء خالد البدور وأحمد راشد ثاني وميسون صقر وأحمد العسم وهاشم المعلم وغيرهم كثيرون . على امتداد الثلاثين سنة الماضية

وعلى مستوى التنظير النقدي يمكن إبراد فقرة تدخل ضمن الوعي الجديد لمفهوم الشعر والشعرية لدى المثقفين المنتمين لحساسية زمنهم في الامارات من مقال للشاعر عبدالعزيز جاسم منشور في الخليج الثقافي يوم 9 يناير/ كانون الثاني، 2010 تقول الفقرة: والشاعر في شعرية التواصل أو التنادي والعبور يجب عليه أن يؤسس لزمنه الخاص، وينحاز كلية لزمن الشعر والشاعر والقصيدة معا، ويحررهم من برائن الزمن الأفقي التعاقبي التكنولوجي الذي يطبع التاريخ عادة . وحين لا يفعل الشاعر هذا، ولا يفهم طبيعة الزمن العمودي، ولا يثور على الزمن الأفقي المدهام، فإنه يظل . متأبداً في قعر الكلاسيكية المتلاشية لا يفارقها

إن موقف عبدالعزيز جاسم لا يوارب الثقافة الشعرية التقليدية بل يهاجمها بوضوح وقوة إذا رغبت في تصدر الراهن الثقافي، لكنه يحترمها إذا ظلت ماكثة في زمنها القديم . ويعني هذا أن في المسار الثقافي الاماراتي الحالي يوجد صوتان في الساحة، صوت التراث المدعوم لانسجامه مع استراتيجيات المؤسسة الثقافية وأهدافها، وصوت الحداثة المسكوت عنه في السنوات الماضية، والملتفت إليه من قبل المؤسسات الثقافية المحلية في الفترة الأخيرة ويتجلى ذلك في طباعة الدواوين الشعرية الحداثية وتقديمها للقارئ العربي في المعارض الداخلية والخارجية، بل إن وزارة الثقافة والشباب وتنمية المجتمع تجاوزت هذا الدور إلى دور أعمق وهو ترجمة الشعر الاماراتي الذي يحمل صوت الأجيال الجديدة إلى لغات عديدة . ونلاحظ في هذا التوجه صالحاً يخدم موقع الامارات الثقافي في العالم، فإذا كان صوت التراث يخدم المؤسسة في الداخل فإن صوت الحداثة يخدم صوت المؤسسة في الخارج

إذا كان جيل حمد أبوشهاب المؤسس لتوجهات الثقافة التراثية في الامارات مشغولاً بعروة بن الورد وقيس بن الملوح والأصمعي وجريير والعباس بن الأحنف فإن الجيل الشعري الاماراتي الجديد مشغول بشعراء الحداثة وبالتيارات الفنية

الوحشية والمستقبلية في الوطن العربي وفي العالم . وإذا كان جيل أبوشهاب مشغولاً بالتراث الأدبي المحلي من خلال إبداع الماجدي بن ظاهر وأحمد بوسنيده وسالم الجمري وراشد الخضر وفتاة العرب وراشد بن طناف وغيرهم كثير فإن شعراء الحداثة في الامارات تعاملوا مع واقعهم انطلاقاً من مفاهيم حادة ومختلفة ليس هنا مجال التفصيل فيها . لكن الملاحظ هو أن الشاعر التقليدي المحلي مرتاح البال لأن بيئته تشجعه وتدعمه وتستهلك منتوجه بشهية وفرح، أما الشاعر الحدائي المحلي فمسكون بالقلق لأنه مطارِد بالإحساس بالاغتراب عن بيئته التي لا تملك أدوات تمكّنها من التمازج معه، لكنه مسكون أيضاً بالمستقبل الذي تتجه كل التحولات المجتمعية الكبرى نحوه بقوة، وهو ما يجعل شعراء الحداثة يشعرون أن حفرهم الدائم في اللغة والمفهوم والمؤسسة سيترك له أثراً يخدم تطلعات إنسانية جوهرية مثل . التسامح والحوار الثقافي مع الآخر والتناغم مع الحقوق العليا للإنسان

ويظل سؤال يدق الأبواب منتظراً من يجب عنه أو يتفاعل معه وهو هل قراءة التراث الشعبي المحلي من الضروري أن تتم بأدوات معرفية تراثية أم تتم بأدوات معرفية حدائية ذات صلة بالتطورات التي شهدتها حقل الأدب الشعبي وحقل الأنثروبولوجيا والأثنوغرافيا في العالم وفي المنطقة العربية؟ إن الملاحظ أن التراث الشعبي المحلي حتى الآن لا يزال لم يدخل بعمق في مختبر البحث العلمي ولا يزال التركيز فيه منصباً على التوثيق والقراءات التقليدية . ولعل مهمة التوثيق التي توليها المؤسسات الثقافية والتراثية في الدولة تحتاج إلى دعم أكبر لأنها الكفيلة بجمع وتصنيف التراث المعنوي والمادي قبل زوال كنوزه برحيل كبار السن من ذوي الخبرة والممارسة . لكن ذلك يجب ألا يحجب ضرورة التأسيس لبنية بحثية حديثة ونشطة تقرأ مفردات التراث ودلالاتها وتقدم من خلال ذلك مقترحات عملية للإدارات المعنية بقصد . اتخاذ الإجراءات لحماية الهوية بمفهومها المتفاعل والحيوي